مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٢٠٠٨/١

الأحد ٦ كانون الثاني

الظهور الإلهي

الرسالة

(تيطس ٢: ١١–١٤؛ ٣: ٤–٧)

يا ولدي تيطُس لقد ظهرت نعمةُ اللهِ المُخلِّصةُ لجميع الناس* وهي تؤدِّبنا لننكِرَ النفاقَ والشهواتِ العالميَّة فنحيا في الدهرِ الحاضرِ على مقتضَى التعقُّلِ والعدلِ والتقوى* مُنتظِرينَ الرجاءَ السعيدَ وظهورَ مجدِ إلهنا العظيمِ ومخلِّصنا يسوعَ المسيح* الذي بذلَ نفسه لأجلِنا ليفتدينا من كلِّ إثمٍ ويُطهِّرَ لنفسه شعباً خاصاً غيوراً على الأعمالِ الصالحة* فلمّا ظهرَ لُطفُ اللهِ مخلِّصِنا ومحبَّتُه للناس* خلَّصَنا هو لا لأعمالٍ في البرِّ عملناها نحن بل على مقتضى رحمتِه بغَسلِ الميلادِ الثاني وتجديدِ الروحِ القدُس* الذي أفاضَه علينا بسخاءٍ بيسوعَ المسيحِ مخلِّصِنا* حتى إذا تبرَّرنا بنعمته نصيرُ وَرَثَةً على حسَبِ رجاءِ الحياةِ الأبديَّة.

يسوع يعتمد على يد يوحنا

تُجمع كتب العهد الجديد، ولا سيّما الأناجيل الأربعة، على أنّ يسوع اعتمد في نهر الأردنّ على يد يوحنا المعمدان. بَيْدَ أنّ التقاليد الإنجيليّة لا تُخفي أنّ هذه المعموديّة هي، في ذاتها، أمر غريب. ويعبّر يوحنا نفسه عن وجه الغرابة هذا، إذ يقول ليسوع، بحسب رواية الإنجيلي متى: «أنا محتاجٌ أن أعتمِدَ منكَ وأنتَ تأتي إليَّ» (متى ١٣:٣)؟ إذ كيف يمكننا أن نفسّر أن السيّد يعتمد على يد العبد؟ وكيف يقتبل مسيح الربّ المعموديّة ممّن هو غير مستحقّ أن يحلّ سيور حذائه (لو ٣: ١٦)؟ وما معنى أنّ من سيعمِّد بالروح القدس، والمقصود حلول الروح القدس على التلاميذ في يوم العنصرة، يعتمد هو نفسه بالماء (لو ٣: ١٥–١٦)؟ وكيف يُقبِلُ من هو بلا خطيئة على معموديّة التوبة التي كان يوحنا يمنحها للخطأة في سبيل مغفرة الخطايا؟

لقد حفظ لنا إنجيل متى جواب يسوع على اعتراض يوحنا المعمدان، حين جاء السيّد ليقتبل المعموديّة منه: «فأجابَ يسوعُ وقال له اسمح الآنَ. لأنَّه يليقُ بنا أن نُكمِّلَ كُلَّ برٍّ» (متى ٣: ١٥). البرّ، في عرف الكتاب المقدّس، هو طاعة الله عبر حفظ شرائعه والعمل بها. لكنّ ما يطلبه يسوع من يوحنا هنا يفوق، بأشواط، ما هو متضمّن في الوصايا العشر وشريعة العهد القديم على وجه العموم. إذ لا شيء في هذه الشريعة يبرّر ليوحنا أن يرفع يده ويسكب ماءً على رأس من يعلم هو علم اليقين أنّه مسيح الربّ. ما معنى رغبة يسوع، إذاً، في أن تأتي معموديّته على يد يوحنا «تتميماً» لبرّ العهد القديم؟ الفعل الذي يستخدمه يسوع، في جوابه على اعتراض يوحنا، يحمل، في الأصل اليوناني، معنى «الإمتلاء»، وهو إيّاه الفعل الذي يلجأ إليه الإنجيليّ متى ليدلّ على تحقّق نبوءات العهد القديم في حدث ولادة يسوع: «لكي يتمَّ / يمتلئَ ما قيل من الربّ بالنبيّ القائل» (متى ١: ٢٢). وهو، أيضاً، الفعل ذاته الذي يستعمله يسوع في العظة على الجبل ليصف العلاقة بين شريعة العهد الجديد وشريعة العهد القديم: «لا تظنُّوا أنّي جِئتُ لأنقُضَ الناموسَ أو الأنبياءَ، ما جئتُ لأنقُضَ بل لأكمِّلَ» (متى ١٧:٥). ينتج من هذا أنّ يسوع، من حيث كونه مسيح الربّ

الإنجيل

(متى ٣: ١٣–١٧)

في ذلك الزمان أقبل يسوعُ من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتَمِدَ منه* فكان يوحنا يمانِعُه قائلاً أنا محتاجٌ أن أعتمدَ منك أَوَأنت تأتي إليَّ* فأجابه يسوعُ قائلاً: دَعِ الآنَ فهكذا ينبغي لنا أن نُتِمَّ كلَّ برٍّ. حينئذٍ تركه* فلمَّا اعتمد يسوعُ صعِد للوقت من الماءِ وإذا السمواتُ قد انفتحتْ له فرأى روحَ الله نازلاً مثلَ حمامةٍ وحالاً عليهِ* وإذا صوتٌ من السماءِ قائلاً هذا هو ابني الحبيبُ الذي بهِ سُررت.

تأمل

«فلمَّا اعتمد يسوع صعِد للوقت من الماء وإذا السموات قد انفتحت له» أي قبل أن يخرج كليًّا من الماء، بل عند صعوده منه فقط. لاحظوا جيّداً أيّها الإخوة سرّ المعموديّة في المسيح: إن نزول المسيح في المياه ووجوده (أي المسيح) مغموراً به (تحت الماء) حين اعتماده، يسبق ويشير إلى نزوله إلى الجحيم.

إذاً، بعد صعوده من الماء انفتحت السموات للحال، هذا لأن نزوله إلى الجحيم الذي يحقّق بحضوره اقتراب ملكوت السموات، يُعلن أنّ حياته وتعليمه ليسا مجرّد تحقيق حرفيٍّ لبعض آيات العهد القديم، بل هما يبلغان بالعهد القديم، في مجمله، إلى غايته، إلى ملئه. كلّ مقاصد الله ومشوراته، وما أوحى به في العهد القديم من شرائع ونواميس، وما يتّصل بتطبيقها من برّ، كلّ هذا ينكشف مبرَّر وجوده ومعناه الأخير في يسوع الناصريّ الذي قصد يوحنا ليعتمد منه في الأردن. بهذا المعنى، تُضحي معموديّة يسوع على يد الصابغ تتميماً لبرّ العهد القديم في مجمله. المسيح الملك لا يحسب ملكيّته «اختلاساً» (راجع في ٢: ٦–١١)، بل ينحني لإرادة أبيه الذي شاء له أن يعتمد على يد العبد: «السيِّدُ الرَّبُّ فتحَ لي أُذُناً، وأنا لم أُعانِدْ. إلى الوراءِ لم أرتدَّ» (إش ٥٠: ٥). والعبد الذي أخذ على عاتقه أن يهيّئ، بواسطة معموديّة التوبة، درب المسيح الآتي يتعرّف على هذا المسيح ذاته آتياً إليه ليعتمد، على كونه بلا خطيئة وغير محتاج إلى توبة، فلا يتمرّد ولا يعاند، بل يطيعه طاعةً كاملةً مُظهراً أنّ من يعتمد، لا من يُعمِّد، هو السيّد الفعليّ. والله الآب يختم كلّ هذا بصوته، وعبر إرسال روحه، مبيِّناً كيف أنّ حضور الناصريّ إلى الأردن يصبح المكان الذي يُعتلن فيه سرّ الله، سر الوصول بالعهد القديم إلى ملئه: «هذا هو ابني الحبيبُ الذي به سُررت» (متى ٣: ١٧).

وتضيف نصوصنا الليتورجيّة، متأمِّلةً في حدث الأردن، أنّ الربَّ دخل المياه، لا ليضرب ذاته لنا مثالاً للتواضع فحسب، بل ليقدّس الماء أيضاً. لماذا تحتاج المياه إلى تقديس؟ طبعاً، من السهل القول إنّ كلّ الأمور المادّية في حياتنا، بما فيها الماء، تحتاج إلى حضور الله فيها، حتى يصبح هو، لا سواه، فاعلاً فيها وبواسطتها. وصلاتنا على المياه، يوم الظهور الإلهيّ، إن هي إلاّ تعبير عن قدرة الله على نقل قداسته إلى المؤمنين بواسطة الماء. بيد أنّ للمياه، في منظور الكتاب المقدّس، وضعاً خاصًّا يميّزها عن بقيّة العناصر. وهذا يعسر توضيحه ما لم نسترجع بعض نصوص العهد القديم ونستقرئ دور المياه فيها. الحقّ أنّ المياه، في الكتاب المقدّس، ليست عنصراً «حيادياً»، بل هي تظهر في كثير من النصوص بوصفها المكان الذي يربض فيه أعداء الله والعامل الذي يهدّد خليقته. في كتاب التكوين مثلاً، يشير الغمر المائيّ بارتباطه مع الظلمة إلى حال «اللاخلق»، وذلك قبل أن تزيل كلمة الله الظلام، عبر خلق النور، وتنظّم المياه بحيث تظهر اليابسة (تك ١: ١–٨). أمّا في كتاب المزامير فتظهر المياه، أحياناً، بوصفها عدوّ الله ومكان سكنى التنانين التي تهدّد من يعيش على اليابسة: «أنت شققتَ البحر بقوَّتِكَ، كسرتَ رؤوسَ التنانينَ على المياهِ، أنت رضَضتَ رؤوسَ لِوياثانَ، جعلتَهُ طعاماً للشعبِ لأهلِ البريَّة، أنتَ فجَّرتَ عيناً وسيلاً، أنتَ يبَّستَ أنهاراً دائمةَ الجَرَيانِ» (مز ٧٤: ١٣–١٥). الله، إذاً، يعبّر عن ربوبيّته وجبروته بتسلّطه على المياه. فيضحي الماء لا العنصر المادّيَ المتمرّد الذي يعجّ بأعداء خليقة الله، بل العنصر الخاضع كليًّا لإرادة الله وسلطانه، بحيث أنّ الربّ يفجّر ينابيع حيث يشاء، ويجفّف أنهاراً حيث يشاء. وهذا، في التحليل الأخير، مدلول تسلّط المسيح على البحر، حين سكّن عاصف الريح وهياج الأمواج. فهو، هنا، في موقع إله العهد القديم الذي يعبّر عن سيادته بقهره تعنّت المياه.

صورة الماء هذه، كما نعثر عليها في بعض نصوص الكتاب المقدّس، لم تكن خافيةً على واضعي

من أجلنا صار تحت الثرى، وعندما عاد من هناك فتح لنفسه كلّ شيء، لا فقط ما تحت الأرض وما على الأرض، بل السماء العليا نفسها، التي عندما صعد إليها بالجسد، «دخلها كسابق لأجلنا» (عب ٦: ٢٠). أي كما سبق ورسم آلامه الخلاصيّة عن طريق الخبز السرّي والكأس، ثم أعطى ذلك السرّ للمؤمنين لكي يُتمموّه من أجل الخلاص (راجع متى ٢٦: ٢٩؛ لوقا ٢٢: ١٤-٢٠)، هكذا أيضاً سبق ورسم نزوله إلى الجحيم وصعوده منه عن طريق معموديّته تلك، ومن ثم أعطى ذلك السرّ للمؤمنين لكي يُتمموّه من أجل الخلاص...

«وإذا السموات قد انفتحت له» لم يقل السماء بل قال «السموات»، أي كلّ ما هو فوق، حتى لا يعتقد أحد أن هناك شيئاً باقياً يعلوه. عليك إذاً أن تعرف أن هناك طبيعة واحدة، وسيادةً واحدة تأتي ممّا فوق السموات وممّا حولها، وتصل إلى حدودنا الخاصّة، أي تملأ كلّ شيء، وتضبط كلّ شيء، وتُعرف بطريقة غير مدركة بأقانيم ثلاثة متّفقة.

«انفتحت له السموات»، وكما يقول مرقس الإنجيلي «انشقت»: «وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت» (مر ١:

الليتورجيا. فهي منطلق كلامهم على المسيح الذي ينزل إلى الأردن ليقدّس الماء، أي ليجعل منه أداةً في خدمة خطّة الله الخلاصيّة، لا أداة تمرّد ومعصية: «أبصرتك المياه يا الله، أبصرتك المياه ففزعت». بهذا المعنى، معموديّة السيّد في نهر الأردن، رغم أنّها كانت معموديّة يوحنا ورغم عدم حاجة من اقتبلها إلى التوبة، إنّما هي على علاقة وثيقة بالمعموديّة الحقيقيّة، معموديّة الروح القدس، التي ستضحي ممكنةً بعد موت يسوع على الصليب وقيامته. وتكمن هذه العلاقة في أنّ المعموديّة الحقيقيّة بالروح القدس تتمّ أيضاً بواسطة الماء، بعدما قدّسه السيّد في الأردن. لذا، نحن نستدعي الروح القدس على المياه في صلاة تقديس الماء، التي تفتتح سرّ المعموديّة، طالبين من الله الآب أن يمدّ الماء ببركة الأردن إيّاها بعد نزول ابنه الحبيب فيه، وأن يجعل منه رحم الحياة الجديدة الممنوحة لنا بموته وقيامته.

ظهور الثالوث القدوس في حياة الكنيسة

«الله الآب لم يرَهُ أحدٌ قطُّ، الإبنُ الوحيدُ الذي هو في حِضنِ الآبِ هو خَبَّرَ» (يو ١:١٨).

توضح العقيدة الأرثوذكسية ان النتيجة الحتمية لتجسّد الإله الكلمة كانت ظهور الثالوث القدوس بالرب يسوع المسيح، أي انه من خلال حضور الرب بالجسد تعرّف الناس إلى أقانيم الثالوث، لذلك يقول الرب يسوع «الذي رآني فقد رأى الآبَ» (يو١٤:٩)، والرسول بولس يقول: «وهو (أي يسوع) بهاء مجده (أي مجد الآب) ورسم جوهره (أي جوهر الثالوث القدوس)» (عبر ١: ٣). ولطالما عاشت الكنيسة سرّ الظهور الإلهي من حيث هو استعلان لحقيقة الإله المثلّث الأقانيم في الإبن الوحيد، الذي يتبنّى طبيعة الأنام ويقيمها في مسرّة الآب السماوي. هذا الظهور بدّل مسار حياة الإنسان، بل وكشف الغاية النهائية لوجوده والمعنى الأوحد لكلّ حضارة وثقافة.

مسرّة الآب الأزليّة كانت أن يتّحد الإله غير المخلوق بالإنسان جَبْلَتِه. أي ظهور الإله المثلّث الأقانيم في حيّز التاريخ البشري من أجل استعادة الخليقة وتقديسها وإدخالها في شركة ملكوته الأبديّة. وهذا الأمر تحقّق في تجسّد كلمة الله، وعبّر عنه الملائكة في تسبيحهم ليلة الميلاد مرتّلين أن «بالناس المسرّة» (لو ٢: ١٤). وهو الأمر الذي أعلنه بالأكثر صوت الآب نفسه على نهر الأردن شاهداً أن «هذا هو ابني الحبيبُ الذي به سُرِرْتُ» (متى ٣: ١٧؛ مر ١: ١١؛ لو٣:٢٢).

المسرّة الإلهية تمتد إلى كل واحد منا يوم يعتمد ليندرج في الكنيسة جسد المسيح، موضع اتحاد الإله بالبشر، فيضحي، بفعل الروح القدس، إبناً محبوباً. المسيح يظهر اليوم ليُغني وجودنا على الأرض، ليغني مداركنا، وإمكانيّاتنا وآفاقنا. يتحدنا بجسده جاعلاً إيّانا شركاء ميراث مجده، أي مجتمعاً إلهياً وكنيسةً مجيدة.

أما هوية الكنيسة فتتحقق أكثر ما تتحقق في القداس الإلهي، حيث يُظهر الإله ذاته للمؤمنين الذين يقدّمون له ذبيحة التسبيح ويودعونه كلّ حياتهم قرباناً ومحبّة. في القداس يصير اتحاد الإنسانيّة بخالقها واقعاً محسوساً، في حركة تقدِمة وشكرانٍ على عطيّة ظهوره واستعلان محبّته السرمديّة.

أما الروح القدس فيحضر ليفعم نفوسنا وأجسادنا، يوميّاتنا وتطلّعاتنا، سروراً وحياةً إلهيّة.

١٠). كيف يقول الواحد «انفتحت» والآخر «انشقّت»؟ لنتذكّر أن معنى السرّ مزدوجٌ. عندما يقول انفتحت، هذا يعني أنها كانت مقفلةً قبلاً بسبب الخطيئة ومعصية آدم، إذ كُتب أن السماء قد أُغلقت أمام آدم لمّا عصى الوصيّة الإلهية. فسمع من الله «إنك تراب وإلى التراب تعود» (تك ٣: ١٩). إذاً انفتحت السموات للمسيح عن حقّ، إذ ظهر مطيعاً في كلّ شيء، وكما قال للمعمدان (متى ٣:١٥) قد أتمّ كلّ برّ والآن أيضاً عن طريق المعمودية.

وكما يقول يوحنا السابق نفسه: «ليس بكيلٍ يُعطي الله الروح. الآبُ يحبّ الابن وقد دفع كلّ شيء في يده» (يو ٣: ٣٤–٣٥). يبدو أن المسيح بالجسد قد أخذ قوّة الروح وطاقته كلّها بلا قياس. لذا أظهرت السموات أنّ قوّة الروح الإلهي لا تسعها السموات هذه مع كل المخلوقات. فقد ظهرت القوّة هذه ونزلت على الجسد الأقنومي الإلهي، فلم تسعها السموات لذا انشقّت. فقد صدق القول: «السموات غيرُ نقيّة في عينيه» (أيوب ١٥: ١٥).

القديس يوحنا الذهبي الفم

ظهور الروح يُسكِن فينا الحياة الأبدية الإلهيّة التي للثالوث المحيي. حلوله يشكّل الكنيسة الجسد، يربط أوصالها ويغذّيها بالنعمة المؤلِّهة.

وهذا التألّه لهذه الجماعة من الناس التي ترتجي ظهور إلهها، هذا البعد الروحي الأسمى لعيشنا في كنف الكنيسة، لا ينأى عن واقع الناس وأشجانهم. فالمسيح يغنينا بنعمة روحه القدوس دون أن يغرّبنا عن ذواتنا وعن إنسانيّتنا، بل يصالحنا معها، يهبنا القلب الشفاف، والحواس الرفيعة التي تتفاعل مع كلّ ألم في البشريّة وتسعى إلى مؤاساته. «من يَضعفُ وأنا لا أضعفُ، من يعثرُ وأنا لا ألتَهِبُ» (٢ كور ١١: ٢٩).

لهذا فالكنيسة هي البُعد الإنساني الأساس في حياتنا، حيث يظهر الإله في الإنسان، في المسيح الإله – الإنسان، وفي كلّ إنسان. هي مكان بلوغ الإنسانيّة أوجها. الكنيسة، في ترقّبها ظهور الإله لا تحجّم ما هو إنسانيّ بل توجهه وتبلوره، لا تقمعه بل تنمّيه وتكمّله. الكنيسة ترعى الإنسان، تشفيه وتقدّسه. هي تكمّل إنسانيتنا جاعلةً إيانا، بالنعمة هياكل لظهور الإله. هذا الإرتقاء الروحي بالنعمة، هو غاية حياتنا على الأرض. إنسانيتنا تبلغ غايتها حين نصير كنيسة أي أبناء لله بنعمة الروح القدس. الكنيسة تتجلّى في تفتّح ما هو إنسانيّ لأنّها جسد المسيح الإله الصائر إنساناً، الصائر أكثر إنسانيّة من أيّ إنسان. ذلك أنّ الكيان البشري لا يزدهر أو يتألّق إلاّ في اتحاده بحياة الثالوث القدوس.

هذا التفتّح الإنساني، هذا النمو الحقيقي الإلهي، لا يُستعلن إلاّ لمن يرتضي أن يعبر في خبرة الصليب، مثل الإبن الوحيد، الذي ظهر في الأردن، لا ليمجده الناس، بل ليكمّل سرّ التدبيرِ الإلهي، و«كلّ برّ» (متى ٣:١٥)، محققاً في كلٍّ منا، إن رَجَونا ظهوره، مسرّة الله الآب.

نِعَم المعموديّة

لنردّد من جديد: تبارك الله الصانع المعجزات وحده»، الذي يخلق كلّ شيء ويجدّده. فالذين كانوا في الأمس أسرى، أضحوا اليوم أناساً أحراراً ومواطنين في الكنيسة. وأولئك الذين كانوا قبلاً في عار الخطيئة، أمسوا الآن في الجرأة والبرّ. فليسوا هم فقط أحراراً، بل قدّيسون، وليسوا هم فقط قدّيسين، بل أبرار؛ وليسوا هم فقط أبراراً، بل أبناء؛ وليسوا هم فقط أبناء، بل ورثة؛ وليسوا هم فقط ورثة،، بل إخوة المسيح؛ وليسوا هم فقط إخوة المسيح، بل ورثة معه؛ وليسوا هم فقط ورثة معه، بل أعضاؤه؛ وليسوا هم فقط أعضاءه، بل هياكل؛ وليسوا هم فقط هياكل، بل أدوات الروح...

«تبارك الله الصانع المعجزات وحده». أرأيت كم يبلغ عدد مواهب المعمودية؟ ففي حين يعتقد الكثيرون أنّ مغفرة الخطايا هي موهبة المعمودية الوحيدة، ذكرنا نحن حتى الآن عشرةَ أمجاد منحتها المعمودية. لهذا السبب نعمّد الأطفال الصغار، رغم غياب الخطايا، لكي يُمنحوا القداسة والبرّ والميراث والأخوّة والعضوية في المسيح، ويصيروا مسكناً للروح القدس.

معكم إذاً، يا إخوتي الأحبّاء، إن جاز لي أن أدعوكم إخوة، اشتركت في الولادة عينها، ولكنّني في ما بعد فقدت، بإهمالي، هذه الأخوّة الكاملة الحقيقيّة. ومع ذلك، دعوني أنادِكم إخوة من أجلِ المحبّة التي أخصّكم بها، وأحثّكم على أن تشهدوا لحماسةٍ أكبر على قدر ما نلتم من شرف عظيم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb